تطور مفهوم التعريب في تونس

الدكتور المنجي الصيادي

العوامل التاريخية : ان الجو السياسى العام فى العالم العربى اصبح يتخذ شكلا جديدا ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وذلك بفضل تأسيس جامعة الدول العربية ، التى فرضت نشاطاتها الجديدة السياسية منها والثقافية ، اسلوبا جديدا فى العمل والتفكير ، لم يعهدهما العالم العربى من قبل ، فأدى ذلك الى قيام وعى بمكانة اللغة العربية فى التبادل الفكرى ٠

وتونس كبقية البلدان العربية المستعمرة الاخرى ، صارت تنظر الى هذه النافذة المفتوحة بأمل وشوق ٠ فهى تتعلق اصلا بكل ما يرد اليها كيانها العربى ٠ واهتم الحزب الحر الدستورى التونسى لاول وهلة بنشاط الجامعة وقرر فتح مكتب اتصال بالقاهرة ٠ ويقول المرحوم الشيخ الفاضل بن عاشور ، مؤلف كتاب « الحركة الادبية والفكرية فى تونس » ، وهو عبارة عن سلسلة من المحاضرات القاها بمعهد الدراسات العربية العالية (القاهرة ، 1956 ، ص 206) ما مفاده : « واصبحت الجامعة العربية باعتبار ناحيتها الثقافية والسياسية ، الغاية التى يتجه كل عمل فكرى أو اجتماعى فى تونس الى تحقيقها ، ففى ربيع الاول 1315 ، يناير 1946 ، اسست الجمعية الخلدونية (1) معهدا للدراسات العالية باسم معهد البحوث الاسلامية ٠٠ »

واثناء الحرب العالمية الثانية ، كانت المدارس الحكومية مغلقة اثناء فترة الاحتلال النازى بتونس ، فأسس مدرسو الجامعة الزيتونية نواة لتعليم قومى فى بعض المدارس القرآنية الحرة ، بوسائلهم الخاصة ٠ فكان العدد الكبير من حاملى الشهادات العلمية الزيتونية قد سد — ولو بصورة وقتية — الفراغ الذى تركه المعلمون الفرنسيون الذين استدعتهم حكومتهم للخدمة العسكرية ٠ فالفراغ الذى نتج عن غلق المدارس المعروفة بالمدارس الفرنسية العربية ، وقع تعميره جزئيا بفضل الوعى الذى اتصف به المدافعون عن سلامة اللغة العربية ٠ وكان لهؤلاء ان يفكروا فى تلك الظروف العصيبة ٠ ان انحسار رقعة الثقافة الفرنسية لم يكن بالكارثة

(1) ستنشر قريبا دراسة لنا بالفرنسية عن « اولى الجمعيات القومية العصرية بتونس ، الجمعية الخلدونية ، (1896 — 1958) » ، بالدار التونسية للنشر ٠

كما تصور البعض ، بل ان هذه الفرصة السانحة مكنتهم من القيام ببادرات حتمتها الظروف . فسمح لعدد من حاملي شهادات اللغة العربية بالقيام بمحاولة لتنظيم تعليم وطني معرب . واقتداء بهم انشأت جمعية الشبان المسلمين مثلا مراكز لتعليم العربية بتونس وبداخل البلاد .

ومن هذه الوجهة ، كانت هذه العملية الهادفة الى تقويم العربية من جديد باعثا على ارساء قواعد لاصلاح التعليم ، اتخذتها الادارة المختصة التي كان **يشرف عليها مدير فرنسي** . على ان بوادر هذا الاصلاح فرضتها رغبات الوطنيين المتعلقين بتعريب المدرسة الابتدائية الفرنسية العربية .

التعريب في المرحلة الابتدائية :

تم هذا الاصلاح ، لكن بصفة تجريبية تدريجية ، فلم يستجب اصلا لمطامح اسرة التعليم المنضوية تحت لواء نقابتها القومية ، « الاتحاد العام التونسي للشغل » ، التي الحت من بداية سنة 1946 (وبعد القيام بتخطيط شامل لتعريب التعليم) على تعريب المواد العلمية في التعليم الابتدائي ، حتى توزع ساعات التعليم بصورة اكثر عدالة (اذ ان ساعات العربية لم تكن تتجاوز التسع من 30 ساعة في الاسبوع) . لكن المشروع لاقى اعتراض الاعضاء الفرنسيين في مجلس التعليم العمومي على انه وقع تعريب مرتجل سريع لتعليم الحساب في السنة الاولى الابتدائية . فالبرامج لم تصل الا في شهر ديسمبر الى المدارس ، ولم يقع تهيئة المعلمين لتطبيقها . ورغم هذه العوائق المصطنعة تحسن معدل اللغة العربية ، بعد الاطلاع على امتحان المستوى الذي اجرته المصالح الادارية على تلاميذ السنة الاولى .

فصوت الاعضاء التونسيون بالمجلس المذكور لفائدة مواصلة التجربة بينما الح الاعضاء الاجانب على ابقاء العربية في اطار التسع الساعات . ولذا تقرر دعوة مؤتمر قومي لينظر في وضعية التعليم والثقافة الوطنية ، تحت اشراف وبتأييد المنظمة النقابية التونسية ، التي كانت تعتقد منذ البداية ، ان تعريب التعليم هدف يفرضه الواقع القومي ، وهو يستجيب لرغبات الامة ، التي تريد الحفاظ على شخصيتها مع التفتح على مختلف التيارات الحضارية العالمية .

لكن ادارة التعليم العمومي حافظت على منهجها فكانت تطبق تدريجيا وبكل حذر التعريب الجزئي الذي لايمس جوهر تعليم الفرنسية ، مخافة ان ينخفض المستوى . فتواصل التعريب الى السنة الرابعة . وفي نفس الوقت كانت تبث الشكوك في صلاحية العربية للقيام باعباء التعريب (بمشكلة العدد والمعدود في دروس الحساب مثلا) فقرر الاختصاصيون التونسيون الوتوف على الساكن ، مثلا عند العد الشفوي واستنبطوا المصطلحات في مبادىء العلوم ... وفي سنة 1950 ، شرع في تعريب مبادىء العلوم ، اذ لوحظ ان التعريب في هاتين المادتين الحساب والعلوم) « يسمح بتعليم مباشر لا يتطلب اي تدريب مسبق لمصطلحات معينة » . فكانت النتيجة الهامة الحاصلة فعلا ان الاقسام التي طبق فيها التعريب ، وفق النظام الجديد ، « على سبيل التجربة » نمت من امكانيات التلميذ في استعمال العربية ، اذ ان تعليم الحساب ومبادىء العلوم باللغة الام أمد الطفل التونسي بحصيلة من المفردات التكميلية التي تثرى افكاره وتزيد من مقدرته على التعبير بالعربية . والمؤلم ان توقف التجربة قد كبح من جماح هذا الكسب اللغوي ، لكن التأييد الذي تم لها اثبت ان هذا النوع من التعريب ، الذي حصل عن طريق المحاولة فقط ، التي لا تكتسي صبغة نهائية ولا ترمي الى التعميم ، انما يتصف بالشذوذ ،اذ هل يعقل ان يجرب تعليم اللغة الفرنسية على الاطفال الفرنسيين ؟

ولذا ، كان من مخاطر التعليم الثنائي انه كان يفرض على الطفل التونسي ان يبقى بالمدرسة الابتدائية سبع سنوات ، بينما الطفل الفرنسي لايتجاوز مرحلة الخمس سنوات بالمدارس الفرنسية بتونس .

مكنت فاتحة عهد الاستقلال من تحوير المناهج تحويرا عميقا جذريا ، بحيث صارت تونستها امرا اكيدا ملحا . ولذا كانت الفترة التي امتدت من 1955 الى 1958 مرحلة تفكير وتقرير لهياكل قومية للتعليم ، فصار من المصلحة الحيوية توحيد البرامج والمدارس حتى لا يبقى الا صنف واحد من التعليم القومي بالبلاد التونسية . فنتج عن التونسة تحوير جوهري في المناهج التي اصبحت تعتمد على الواقع

القومى · على ان المفهوم الجديد للتونسة لم يعد ينحصر فى اللغة ، بل تجاوزه الى « توطين » المناهج والعقول حتى تتشبع الاجيال الصاعدة بالروح القومية ·

صار التعريب يتضمن وجوبا تعميم العربية فى جميع المراحل التعليمية ، بينما لم يتم فعلا الا فى السنة الاولى والثانية من التعليم الابتدائى · لكن فترة 1956 الى 1958 اكدت الاتجاه الذى يعتمد اولا وبالذات على مقدرة المعلم على التكيف مع الوضع الجديد · والعمل على تطبيق التعريب (على ان تكوين المعلمين كان يختلف ، فمنهم من كانت لغة تكوينه الفرنسية ومنهم من كانت لغته العربية ومنهم من تكون بلغتين) · فكان العمل الاصلاحى يهدف الى توحيد اصناف التعليم وصبها فى تيار التعليم القومى الموحد (كان يوجد تعليم زيتونى ومدرسى وفرنسى وحر ···) والواقع ان المدرسة الابتدائية صممت لها برامج للحاضر والمستقبل · فهى تضمن ارساء قواعد الثقافة ، بفضل تعريب المواد ذات الصبغة الثقافية كالتاريخ والجغرافيا ، وبقيت السنة الاولى والثانية حتى الآن تامتى التعريب · ولا يشرع فى تعليم الفرنسية الا فى بداية السنة الثالثة الابتدائية ·

والشعور السائد والمبنى على التجربة اثبت ان تعليم الفرنسية ابتداء من السنة الاولى من التعليم الثانوى يبقى التلميذ فى حالة ضعف لا تسمح له بمواجهة التعليم العالى باللغة الاجنبية ·

التعريب فى المرحلة الثانوية :

بفضل الاصلاح الذى شرع فى تنفيذه ، بداية من اكتوبر 1958 ، وقع انشاء ثلاث شعب ، الشعبة التى تستعمل العربية كلغة تثقيف وتدريس المواد العلمية · فأصبحت الفرنسية تدرس كلغة حية فى هذه الشعبة التى يرمز اليها بحرف (ا) · واما شعبة (ب) فتستعمل اللغتين وتدرس العلوم بالفرنسية · ونجد اخيرا شعبة (ج) التى تغلب الفرنسية وتدرس العربية بها كلغة حية ·

شرع منذ اكتوبر 1958 فى تهيئة الظروف التعليمية الملائمة للتعليم العربى فى شعبة (ا) · وقد تم هذا الامر بفضل الاشغال الفنية التى سبقت وسايرت التجربة ، التى كان من المتوقع ان تدوم عشرين سنة ، حتى ترسخ اللغة العربية ، بصورة نهائية ، مع انه لم يتم تكوين شعبة مماثلة بالتعليم العالى تعد الاساتذة المختصين للثانوى ، لربط المرحلتين من الوجهة التربوية (لم تفتح الجامعة التونسية ابوابها الا بداية سنة 1960) ·

وقد تم وضع قوائم من المصطلحات الخاصة بالعلوم الطبيعية والبيولوجية وظهرت الصعوبات فى مجال تعليم العلوم الفيزيائية وما تفرع عنها · واول قائمة تم انجازها كانت معجما للرياضيات ، وهو الاول من نوعه فى تونس · وقد وقع استغلال الكتب المدرسية الفرنسية فى العلوم وكذلك استفيد من المصطلحات المقررة فى البلدان العربية ، وكذلك من الكتب القديمة (مصباح العلوم للخوارزمى ورسائل اخوان الصفا، ومعجم ابن فارس ، مقاييس اللغة)· ووافقت اللجنة المختصة على القوائم التى رضيت عنها البلدان العربية ، وعند اختلاف الآراء ، يتم الاختيار على اقرب مفهوم للمدلول الاجنبى ، وهذا الحرص حتمى فى مجال الرياضيات ، التى اجبرت المدرس على احترام القوائم المتفق عليها ، بفضل دقة مصطلحاتها · وذلك لتلافى كل بلبلة فردية فى افكار التلاميذ · وقد تم منذ 1950 ، انجاز قائمة مصطلحات العلوم الطبيعية واستخدمت فى الشعبة العلمية ، بالجامعة الزيتونية ، مما تسبب فى تدعيم نشر التعريب فى هذا المجال · على ان عدة اساتذة كانوا يحبذون مصطلحات معينة اتقنوها فى احدى الجامعات بالمشرق العربى ، فحصلت فوضى اضرت بسير الدروس ومستواها ، خاصة عند انتقال التلميذ من سنة الى اخرى ، فيلقنه الاستاذ الجديد مفاهيم اخرى ··

وقد بحثت اللجنة المكلفة بجمع المصطلحات فى العلوم الطبيعية فى الالفاظ القديمة والحديثة واتجه اختيارها دوما الى اللفظ الاكثر دقة والذى لا يستوجب شرحا · فترجمت عدة الفاظ اجنبية وادمجت عدة مصطلحات استمدتها من اللغة العامية، ولا يقبل اللفظ الفرنسى الا فى المرحلة الاخيرة (مثل اميب ، بازالت ···)

أما فى العلوم الفيزيائية ، فقد استعملت المصطلحات التى وافقت عليها البلدان العربية ، فبعثت الى الوجود عدة عبارات مركبة ووقع توليد بعض المصطلحات والتجأ المختصون الى الحرف الاول او الثانى للاشارة الى الرموز ، سواء فى الفيزياء أو الكيمياء ، حيث اضيف عدد كبير من الرموز والعلامات للاشارة الى العناصر واسماء المعادن ، مما سهل على الاساتذة تهيئة دروسهم ·

وبالجملة ، ادت العربية دورها كاملا فى هذه الشعبة ، ولقنت العلوم والرياضيات بواسطتها ، فى المدارس التى تمكنت الادارة من تسديد مطالبها من وجهة الاساتذة والمصادر الاجنبية او المعربة · وكان يشترط على المرشحين ، بالاضافة الى اتقانهم العلم الذى يدرسونه ، ان تكون لهم دراية تامة باللغة العربية · وتعتبر هذه الشعبة اللبنة التى كان يمكن بفضلها تعميم التعريب · وقد تقرر فعلا توسيعها ، كلما امكن تهيئة اطارات معربة ، فى مقدورها تدريس العلوم بالعربية · هذا ما اكده رئيس الدولة فى خطاب له بتاريخ 15 اكتوبر 1959 · الا انه بعد سنوات من مواصلة التجربة ، لم تعط شعبة (ا) كل النتائج المرجوة وتقرر بداية من اكتوبر 1967 ضمها الى الشعبة الثنائية اللغة ، المعروفة بشعبة (ب) ، بحيث وقع توحيد اصناف التعليم الثانوى بصورة فعلية · فتوحدت المناهج الفرعية فى نطاق تعليم سبق ان توحد فى جوهره وانواع مدارسه منذ فجر الاستقلال ·

فالمؤيدون للتعريب اعترفوا بفشل جزئى لهذه العملية الاولى من نوعها ، اذ ان التعليم لم يكن معربا اصلا بل مر عن طريق الترجمة لكن ليس لنا ان نتعلل بهذا الاخفاق لتعجيز العربية فى قيامها بنقل الفكر العلمى والرياضى ، وكان يوجد من الناقدين من راى ان الشعبة المعربة عبارة عن منفذ لمن كان دون المستوى فى الفرنسية · فقد قيل ان هذه الشعبة تنتدب اساتذة ناقصى التكوين · والواقع ان هذا المشروع وقع التسرع فى تعميمه وتطبيقه بدون تهيئة للاسباب التى تساهم فى انجاحه · فقد عملت هذه الشعبة بدون تدرج وبدون اعداد مسبق للاساتذة المختصين والمعربين فى آن واحد ، وبدون تحضير المراجع اللازمة · فكانت هذه العوامل مجتمعة تشكل عوائق فعلية منذ البداية ، فادت الى تعجيز العاملين على انجاح التجربة · كان التلاميذ يدرسون مثلا المصطلحات بالفرنسية وفى الوقت نفسه لم يكونوا متضلعين من هذه اللغة ، اذ انهم يدرسون الفرنسية كلغة حية · وكانوا يحضرون دروسهم وتمارينهم على مراجع فرنسية · ورغم كل هذه المصاعب اثبتت نتائج امتحان شهادة انتهاء التعليم الثانوى فعالية تدريس العلوم بالعربية ، كما تم ذلك فى الابتدائى · (56 % من الناجحين فى دورة 1966)· والملاحظ ان التعجيل بتعطيل هذه الشعبة لم يمكن من التروى فى مفعول هذه التجربة ونتائجها · وتبعا لذلك ، لم تسمح المدة القصيرة التى مرت بها الشعبة المعربة بتوسيعها وتعميمها · كانت النتيجة ان وقع تضييق فى مجال الدراسات العلمية والرياضية بالعربية ، فى المجلات والتاليف والحديث ·

وخلاصة القول اعتبر بعضهم ان الشعبة المعربة لم تعد تمثل الا اختيارا تقليديا قائما على تقييم الماضى بالنسبة للحاضر والمستقبل · اما فيما يتصل بالمستقبل ، فان مصير المتخرجين من هذه الشعبة ، كان يتقرر داخلها ، اذ ليس فى امكان هؤلاء الالتحاق بالشعب التقنية أو الاقتصادية التى تدرس بالفرنسية وكذلك الالتحاق بالتعليم العالى معلقا بايجاد شعب عليا معربة ، وفى مجال التشغيل ، كانت الميادين محدودة ايضا بالنسبة لهم · وهكذا بدات تتبلور المصاعب التى تواجه كل عمل يهدف الى سن تعريب شامل ، اى الى تغيير أوضاع قائمة ، ضمنت فعاليتها بفضل طول الزمن · ولذا اعتبر التعريب مغامرة من هذه الزاوية ، فهو مغامرة بالاجيال ومضرة لامحالة لاحقة بمستقبلهم ، اذا لم تتح تهيئة الاسباب والظروف التى تضمن النجاح · على ان افتراض نجاح تجربة جديدة مسبقا امتدت على فترة زمنية قصيرة واشتراط النجاح لمواصلتها يعد من قبيل الافتراض المحض ويعنى تجاهلا للواقع · فمعيار العمل يختلف عن بناء النظريات ، مهما كان شامخا · ولذا بقى الباب مفتوحا لتنفيذ الحل المختار : اما الثنائية اللغوية واما تعريب التعليم ، بحيث تشمل العربية مختلف الدرجات حتى تمكن هذه اللغة من القيام بدور المحرك فى مستوى الفكر المبدع والفكر المقلد · ويترتب على هذا الاختيار ان التعريب يعرف

على انه اتجاه مغاير للمذهب التربوى يؤثر فى تكوين المعلم والمتعلم · وكما قال المأسوف عليه الاستاذ بلاشار ، فى محاضرة القاها اثناء زيارته لتونس سنة 1957 ، « لا رجعة لعجلة التطور · بل يجب ان تتفتح اللغة العربية وتتكيف حتى تتبل مصطلحات التقنيات والعلوم الجديدة · ولا يقع هذا العمل التكييفى او بالاحرى الاثرائى الا باعتبار حياة اللغة والحياة فقط » · كان هذا الراى يعد موقفا ثابتا للنخبة المتخرجة من المدرسة الصادقية (المؤسسة سنة 1875) ، اذ كانت تعتقد ان العربية لغة لتدريس العلوم بجميع المراحل · وعوض ان تلقن المفاهيم العلمية بالفرنسية ، من المنطق ان تعلم فى اطار تدريس العربية ، مع منح الفرنسية مقام لغة حية تدرس قبل لغات حية اخرى · وكانت النية المعقودة ترمى الى الاقتداء بما انجز فى سوريا ومصر ، فى ميدان التعريب · لكن القرار الحاسم كان يتأرجح بين تطبيق تعريب تدريجى وبين تعريب شامل عاجل لا يعرف بالضبط من يقبل بتحمل اعبائه ومواجهة الاخفاق الذى لا شك انه ينتظر كل ارتجال يحتل مكان الاعداد العلمى الذى يسبق ويهىء لكل تنفيذ اسباب النجاح ·

وكان الواقع يحتم احترام مصلحة المتعلم قبل كل اعتبار آخر · ثم تعتمد امكانيات اللغة الراهنة والمستوى الذى فى امكان المعلم ان يسمو به ويرفع من قيمة دروسه ، فى حدود التكوين الذى كانت تسمح المناهج المقررة فى مدارس ترشيح المعلمين او خارجها (تهيئة تربوية للمعلمين والاساتذة فى تربصات وفى فترات مستعجلة) ·

من المعلوم بداهة ، وهذا ملحوظ فى البلاد العربية على مختلف اوضاعها التعلمية والثقافية ، ان العلاقة القائمة بين الشخصية القومية ومعرفة اللغة العربية وثيقة الارتباط · بلغة مثالية تسمو بالانسان العربى الى مستوى العقل والوجدان معا ، وهذا الامر يثبت امام صعوبة النحو والقراءة والكتابة والرسم ··· لان اللغة موجودة فى اللاشعور تحرك المثقف الى التعمق فى دراستها كعامل من عوامل اندماجه فى مجتمعه المحلى · كان التونسى الذى يتقن لغته العربية اثناء عهد الحماية الفرنسية ، يشعر بالرابطة التى تربطه بغيره من الناطقين بهذه اللغة فيستمد من هذا الوعى احساسا بالطمأنينة ينمو بنمو معرفته للغة التى لا تقف عند حد حفظ الاشعار والتطلع الى المؤلفات الادبية · فالفصحى بالنسبة اليه ، بفضل جدتها وصعوبتها ، تعتبر فى نظره تجاوزا للعامية التى يستعملها رغما عنه ، وفى هذا الاطار ، يحسن تقويم العربية والتساؤل عن مدى تأثرها بالحياة العصرية ، وعن مقدرتها الكامنة للتعبير عن مقومات المدنية المعاصرة ، وذلك لدرء خطأ من يفكر فى تعويضها بلغة اجنبية فى مجال العلوم ، اذ ان هذا الحل يشكل حجة دامغة لافلاس العربية فى القيام بدورها كوسيلة للحوار مع العالم المعاصر · ولا يتأتى طبعا الحل عن طريق الخطب والتشبث بالتقاليد التى تضع اللغة فى قفص ذهبى ، خوفا من وقوعها فى انحلال مزعوم ينجر عن تطويرها وتطويعها لنشر العلوم والمقومات الحضارية ، بل ان الواقع يحتم علينا اخضاعها لنواميس البحث العلمى الموضوعى ، حتى تتضح امامنا المستويات التى تتوارد بفضلها الحاجات العلمية فتسخر امكانيات اللغة للتعبير عنها ادق تعبير · ان الفصاحة رهينة فترة زمنية معينة ، فتكون معبرة مبينة فى نفس تلك المدة ، ثم تصبح الاساليب البلاغية مع مرور الزمن عديمة المفعول : فهل فى امكاننا اليوم ان نكتب نصا مسجعا — ولو كان ادبيا — بدون ان نجلب الشفقة او السخرية ؟ ·

ولا يقف تطور اللغة عائقا فى سبيل المحافظة على التراث · وبالاضافة الى ذلك ، نلاحظ ان المصطلح العلمى يفرض علينا دقة مستمرة فى التعبير لاتتجاوب مع استخدام المجاز والتورية ومختلف المحسنات · ولا يفيد المصطلح ايضا الا اذا حصل على اجماع المعلمين الذين يجب عليهم أن لا يتذوقوه فقط من وجهة صياغته اللغوية ، بل ان يستعملوه مسجلين ردود الفعل لدى تلاميذهم ، قبل غيرهم ، اذ ان هؤلاء هم اول المستهلكين المنتفعين بالمصطلاحات ، وذلك حتى يستقر الراى عليها او يقع العدول عنها ، لان المصطلح مهما تأنقنا وتحرينا فى اختياره من الوجهة اللغوية ، لا يدوم ولا ترسخ قدمه الا اذا ثبت فى وجه الزمن واستجاب فعلا لحاجات المستعملين · ويختلف محك البقاء ، كان يهضم المصطلح بعد قبوله وفهم دلالته التى ترتكز على

محسوس ، او ان يقع التأكد عما تخلد فى ذهن التلميذ من تصور دقيق يقابله ، ولا يرفض المصطلح العربى بل يواجه بالمصطلح الاجنبى ، خاصة فـى نظام تعليمى قائم على لغتين . ونقول اجمالا ان المصطلح ، كما وقع تصوره فى تونس ، يجب ان يحاط باقصى الاحتياطات حتى يقع اقراره عن دراية ، بعد تنسيقه فى المستوى الوطنى والعربى . ولا ضير من ايجاد الصلة مع المصطلحات القديمة — ان وجدت — وما جد من مفاهيم العلوم والرياضيات ، لتلافى فوضى المصطلحات (1) .

والواقع ان فترة الحماية شاهدت انطلاقا لمجهودات مشتتة لبعث الفاظ اجنبية وقع قبولها ، بالاضافة الى استعمال طريقة مزدوجة تعتمد الاشتقاق والتوليد فقد شرعت الجامعة الزيتونية فى تجربة التعريب . فخصصت بداية من سنة 1947 وظائف للتعليم العلمى ، بمساعدة الجمعية الخلدونية فشجع هذا الاصلاح المحتشم الراى العام التونسى على المطالبة بتعريب التعليم ، خصوصا وان الاضراب الذى دام عاما كاملا (1950) حمل السلطة على التعجيل بانشاء شعبة عصرية تدرس فيها العلوم بالعربية . وكان التونسيون فى تلك الفترة يرغبون جميعا فى ارساء قواعد لثقافة قومية متاصلة فـى جذور تاريخ البلاد وجغرافيتها وتقاليدها العلمية ولذا صار التعريب ممكنا فى القرن العشرين الميلادى كما كان الشأن فى القرن الثانى والثالث (الهجرى) . فتساندت المنظمات القومية التونسية (مؤتمر الحزب الحر الدستورى،ليلة القدر سنة 1946)،الاتحاد العام للشغل واتحاد الطلبة) فى المطالبة بتكييف التعليم ببيئة الطفل وبلغته الام ، لان اقصاء العربية مناف لابسط قواعد التربية ولا يمكنه الا ان يكون خاضعا لاعتبارات غير تربوية . فهذا التعريب الذى انبعث بالجامعة الزيتونية كان ركيزة اعدت لانشاء الشعبة المعربة فى التعليم الثانوى القومى ، التى وقع العدول عنها ، كما اسلفنا ، بسبب عدم تهيئة اطار التدريس لمواصلتها . وقد افادت ايضا فى ارساء قواعد التعريب بالجامعة (ولو بصورة جزئية فى ميدان علم التاريخ والاجتماع والحقوق) . ولذا اصبح مفهوم التعريب يشكل تتمة للاستقلال وكل مـا يعوق تطبيقه يؤخر لا محالة العملية بدون ان يحمل على العدول عنها نهائيا فى الواقع ، اذ ان الثنائية فى التعليم التونسى تتصف بالظرفية اكثر منها بالمذهبية . على ان الاهتمام انصب منذ سنوات على انجاز التعريب ، فاثار خصومات كلامية ومناقشات لفائدة الانجاز او للتريث فى التطبيق بدون ان نجد اثرا لاية معارضة مذهبية . ولعل الامر متعلق ، من وجهة نظر علمانية ، بتاصيل التلاميذ فى بيئتهم ، فيصبح التعريب مظهرا من مظاهر الاصالة ؟ ومفهوم الاصالة يبعث على الحيرة ، اذ لم يقف عند حد دلالته اللفظية، بل تجاوزها **الى الخوض فى العودة الى الشرائع القرآنية** .ولقائل ان يقول ان اللغة لا تشكل عائقا فى وجه من يرغب الاندماج فى مجتمعه .

ومنذ سنة 1956 لم تدع مجلة الفكر الرائدة فى مجال التعريب ، المشكل بدون ان تبحثه من جميع جوانبه . فهى تعتبر ان التعريب حتمى لتقويم الشخصية واسترجاعها وتتساءل عن تخصيص العربية لتعليم المناهج التقليدية ، فتبقى اللغة تقليدية ويغلق الميدان العلمى فى وجهها . وتتساءل ايضا (عدد يناير 1971) لماذا لم ينجز التعريب بعد 16 سنة مرت على الاستقلال ، ولماذا لم تضبط مراحله، عوض ان يمضى الوقت فى المهاترات اللفظية ؟ ولوحظ ان خريجى الجامعة الزيتونية تمكنوا من مواصلة دراستهم العالية بدون مخاطر فاتقان لغة اجنبية تتصل باختصاصهم . ولذا من المفيد احياء هـذه التجربة من جديد والوصول الى نتيجة هامة ، هى التحام طبقات الامة ، كما ان التعريب يسمح للمواطن بالارتباط برابطة قوية تشده الى ارضه والى التعايش مع مشاكل بلاده .

على ان التردد والرجوع الى الوراء لا مبرر لهما ، اذ انه يفهم من ورائهما الاعتماد على الثقافات الاجنبية . والفارق فى التعريب بين الابتدائى والثانوى ، هو ان المرحلة الاولى مرت بتعريب يتجه عموديا ، من سنة الى اخرى بينما المرحلة الثانوية مرت بتعريب افقى ، شمل كل الشعبة المعربة .

---

(1) المتفق عليه تقريبا هو احياء المصطلحات القديمة اذا كانت صالحة — اللسان العربى

على أن « هرم » التعريب لم يتبين له اتزان متكامل ، بسبب قلة الاطارات المعربة . ولم يقرأ حساب لتعريب الجامعة ، اذ لم توجد بعد فى سنة 1958 .

ومبعث الشكوك ، بعد بلورة الموضوع ، كان يكمن فى الالتباس الحاصل بين التعريب والرجوع الى الاصل الذى يعتبره البعض عودة الى العلم كما انتشر فى القرون الوسطى . لكن المجال الحضارى يقتضى تونسة وتعريب الانفس والمناهج والعلوم الانسانية والمنهجية وموضوع البحوث الجامعية ، وبفضل هذه الجهود . تأثرت ولازالت تتأثر درجات التعليم الاخرى بهذا الاتجاه ، بدون ان يقع اقصاء اللغات الاجنبية او التخفيض فى مستوى التعليم . ويحتم الحل الواقعى العمل على تعريب تدريجى ، تضبط آجاله . اعتمادا على النتائج الحاصلة وعلى التصحيحات الواجبة ، للقضاء على العيوب التى لاتبرز الا فى مجال التطبيق . على ان التجربة التى شرع فى انجازها . بداية من (سنة 1958) ، لم ترض الجميع . لانها كانت متحفظة ولم يتم الاتفاق حتى الآن على مفهوم التعريب ، وعلى ما يحتويه من مؤثرات فى المجال التربوى ، وكذلك فى العادات المدرسية بالنسبة للمعلم والمتعلم . فهل نعرب مجموع النشاط التربوى والمدرسى والادارى او نعرب تعليم العلوم الصحيحة والرياضيات ؟ وفى هذه الصورة الاخيرة . يميل الاختصاصيون الى انجاز تعريب تدريجى مع حسبان الاخفاق المتوقع والذى حصل فعلا فى الشعبة المعربة .

وقد فتح مجلس الامة (دسمبر 1971) بتونس باب النقاش حول التعريب . فسجل لاول مرة محتواه الرسمى الحكومى . وتمكن النواب من ابداء الراى وتركزت المواقف للتأييد او للمعارضة . ولم تساعد الاختلافات على بعث الجو المناسب لبعث التجربة من جديد . يرفض المحافظون فكرة توليد المصطلحات الجديدة ويقبلون باستعمال القديم . ويحبذ المتطورون العربية الفصحى فى صيغتها الجديدة الحديثة . ويؤيد اتجاه ثالث التعريب مع المحافظة على الثنائية اللغوية فى التعليم . على انه يوجد من عارض التعليم بلغتين ، اذ يعتبره ترفا بالنسبة لبلاد سائرة فى طريق النمو ، لانه يكلفها مصاريف مضاعفة . ولعل هذا الصنف من التعليم عامل على التخفيض من مستوى التلميذ ويستدل على ذلك بتزايد التلاميذ المتأخرين المنقطعين عن التعليم . ويمكن تطبيق حل يرمى الى ابقاء الفرنسية فى آخر سنة من التعليم الابتدائى والرفع من ساعات العربية ، لان عددا هاما من التلاميذ فى القرى ينقطعون باكرا عن المدرسة ، فلا فائدة ترجى من ارهاقهم بتعليم لغة ثانية لن يجدوا فرصة لاستخدامها خصوصا وانه ليس فى امكانهم التفكير بلغة والتحدث باخرى .

والمهم فى الموضوع يتلخص فى ربط الصلة بين التونسة والتعريب . لانه يجب ان ينعكس هذان العاملان فى المناهج والكتب . ليسمحا بابراز الشخصية التونسية التى تتدعم اصالتها بهذه الكيفية .

والواقع ان اللغة الاجنبية توافق مجتمعا استهلاكيا. فتعلمها يثير موجة من الحرمان لدى الشباب فى البلاد . لكن عملية التأصيل تتدخل لادماج التلاميذ فى مجتمعهم .

وخلاصة القول ، ان العربية لايمكنها ان تحتل فجأة مكان اللغات العلمية ، اذ تعوزها المراجع العلمية المتجددة باستمرار . فهل نلجأ الى انتداب جيش من المترجمين ، يكون دائما لاهثا فى ملاحقة ما يستجد من مؤلفات علمية ؟ واذا ما جردنا المشكل من كل عاطفة ، حصل الاتفاق على مبدأ التعريب ولكن لن ينتهى النقاش والجدال فى ميدان التطبيق وليس القول بانفصال تدريجى للثقافة التونسية عن الثقافة العربية الا مجرد افتراض ، لان الرجوع الى الاصالة لا مفر منه ، ولان الحضارة العربية تحتوى على قيم انسانية ، وسيتم هذا الامر بمجرد ان تتحول اللغة العربية من اداة استهلاك الى اداة استكشاف علمى واختراعات . ويجب ان تكون العربية تحت طلب الناطقين بها فى مجالات الادب والعلم والتقنيات وجميع مجالات الحياة